نفسي كثيرًا من جليل العمل، ولكني احتفظت دائمًا بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني البغض، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس عن طوري في لحظة من اللحظات؛ لذلك أجبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه.

قال لي وهو يضحك: فإنك تظنين أني أعبث، وتقدرين ما بينك وبيني من الفرق الاجتماعي، متى تزوج السيد الغني المترف من خادمه الشقية الفقيرة البائسة! أليس هذا هو ما تقدرين؟ فأريحي نفسك إذن من كل هذه الخواطر؛ فقد رأيت منذ موقفنا ذاك في المدينة أني لست سيدًا كغيري من السادة، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست خادمًا كغيرك من الخدم، لقد دهشت حين رأيتك تنتظرينني إلى آخر الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقنك إلى خدمتي، ولكني لم أكن أقدر أنك ستثيرين في نفسي ألوانًا أخرى من الدهش.

ثم أطرق صامتًا فأطال الإطراق والصمت، ولبثت ماثلة ذاهلة لا أقول شيئًا، وأكاد لا أعي شيئًا، ولكنه رفع رأسه، وقال في صوت هادئ حزين: أتقبلين؟ قلت في صوت ليس أقل من صوته هدوءًا ولا حزنًا: فإن سيدي يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل. قال: تفكرين في أبويَّ! فإني قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمري، وما أشك في أنهما لن يمتنعا علي، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما، ولكنهما لن يفعلا، فهل تقبلين؟ قلت: ليس إلى ذلك من سبيل. قال: فمن حقي عليك أن أفهم هذا الامتناع، إنك لتعلمين أن فراقًا بيننا مستحيل، وإني لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبينا رضًا إلا في الزواج. قلت: فقد قُضي على قلبينا ألا يرضيا. قال: ومن ذا الذي قضى عليهما هذا العذاب المتصل؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتي يحتبس، ودمعي ينطلق، وإني لأراني أهمُّ بالانصراف، وإني لأراه قد نهض من مجلسه متثاقلًا وسعى إليَّ متباطئًا حتى ردني في هدوء ودعة، ثم عاد إلى مجلسه وقال: أترين إليَّ كيف أملك نفسي! ألا تفكرين في تلك الثورة الجامحة التي شقيت بها وقتًا طويلًا؟

أنبئيني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم؟ قلت: أنت الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم، وأنا التي قضت علينا هذا العذاب المقيم، كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شرٍّ ونكر، وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه الموادعة الهادئة التي لا ينبغي أن نطمع في خير منها، فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا بالقياس إليَّ. قال: فإن حديثك لم يزدد إلا غموضًا. قلت: فخير لنا أن نقبله على ما فيه من غموض. قال، وقد ظهر أنه يبذل جهدًا ليحتفظ بهدوئه: فإني أقسم لك أني لم أعد